الدرس7: الرؤية التداولية للبلاغة البعد المعياري

تمهـــــيد

إذا كانت التداولية قد نشأت ضمن مباحث الدرس اللساني الحديث وما يتعلق به من قضايا في فلسفة اللغة، فإن الظاهرة البلاغية إنما هي ظاهرة لغوية، ومن ثم تدخل الظاهرة البلاغية ضمن الرؤية التداولية للظاهرة اللغوية، وإذا كانت الظاهرة البلاغية تختلف عن غيرها من الظواهر اللغوية بتضمنها لإيحاءات ودلالات إضافية، فبقدر هذا الاختلاف يكون تناسب الرؤية التداولية لمقاربتها، أي أن الرؤية التداولية بتجاوزها للمعنى الحرفى الملفوظ وبحثها في المعاني المضمنة تكون هي الأنسب لمقارنة الظاهرة البلاغية في تجاوزها المعنى الحرفي إلى معنى المعنى.

أوّلا: الرؤية التداولية للبلاغة

الدراسات التداولية تتبنى الظاهرة البلاغية ضمن معالجتها بوصفها استعمالاً خاصاً للغة، والظاهرة البلاغية في بعدها التداولي تتلاقى مع نظريتين تأخذان الموقف في حسابهما هما: النظرية السياقية ونظرية **أفعال الكلام، وهاتان النظريتان كان لهما أثرهما الذي لا ينكر في التأسيس للتداولية.**

وقد اتخذت العلاقة بين التداولية والبلاغة بعدين أساسيين تتفرع عنهما عدة أبعاد، فمن جهة تعد البلاغة بمفهومها التقليدي-في البلاغة الغربية، اليونانية والرومانية-هي التأسيس الأول للتداولية بوصفها حالة من حالات استعمال اللغة تهدف إلى التأثير في المتلقي، ومن ثم فهي تعكس بعداً تداولياً للكلام، بقول ليتش إن المدخل الذي له حضوره للتداولية هو المدخل البلاغي، ولا يخفي أن **مصطلح البلاغي** مصطلح تقليدي للغاية، وهو يشير إلى دراسة الاستعمال المؤثر للغة في عملية الاتصال، وقد فهمت البلاغة في وجهة النظر التاريخية التقليدية على أنها: **فن استعمال اللغة بمهارة بغرض الإقناع، أو إنتاج التعبيرات الأدبية، أو بغرض الكلام التواصلي بين الناس،** وإن الاستعمال المؤثر للغة في معناه العام ينطبق على المحادثات اليومية والاستعمالات الدائرة بين الناس للغة، إن وجهة مصطلح البلاغة في هذا السياق تنصرف إلى التبئير على اتجاهات أهداف مقام الكلام، التي يستعمل فيها الشخص (س) اللغة لكي ينتج تأثيراً دقيقاً في عقل الشخص (ص)"[1].

ثانيا: الروابط بين التداولية والبلاغة

العلاقة بين البلاغة والتداولية حلقة من حلقات العلاقة الممتدة بين البلاغة وعلم اللغة بشكل عام، **فالعلاقة بين البلاغة وعلم اللغة قد اتسمت بالتفاعل المستمر،** إذ تعد **البلاغة** السابق التاريخي لعلم النص إذا

أخذنا في حسابنا"توجهها العام وتجديد وظائفها المتعددة، لكننا نؤثر مصطلح علم النص؛ لأن كلمة بلاغة ترتبط حالياً بأشكال أسلوبية خاصة كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع2".

ويكاد **يتفق علماء اللغة على أن بزوغ النظريات النصية** كان من بحوث في البلاغة القديمة؛ لأن البحث في ممارسة الخطاب في البلاغة القديمة يضم عدداً من النظريات والقواعد الخاصة بتنظيم نصوص محددة، والمنظومة البلاغية التي حاول هنريش بليت وبناء نظريتها هي ما يطلق عليه علم النص بالمفهوم الحديث، بل إن علم النص. وفق رأى فان ديك. يلتقي مع البلاغة إلى حد يمكن القول معه بأنه أصبح ممثلاً معاصراً لها3.

ومن جهة أخرى **تعد التداولية بمفهومها الحديث** وما أفرزته الدراسات والأبحاث من رؤى منظوراً جديداً للظواهر البلاغية يؤسس لتحليل هذه الظواهر وفق منظور تداولي، وبذلك **تعود البلاغة في العصر الحديث** :لتعتمد على المناهج والنظريات اللغوية الحديثة، ومن **هنا تأتي صعوبة الفصل بينهما عند محاولة تتبع تطور البحث النصي"**فقد أدى التداخل الشديد بين البحوث اللغوية والبلاغية والأسلوبية إلى صعوبة تمييز ما هو نصي مما هو غير نصي، إذ إنها كلها تعني بالمضمون، وإن كانت تتواصل إليه بطرق مختلفة، حتى أدوات هذه المناهج تتداخل بشكل يدعو إلي الدهشة، وصار الربط بين مستويات اللغة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية سمة مشتركة، وإن أضيف إليها المستوى التداولي الذي هو جزء أصيل منها 4، ومن ثم تكون محاولة الفصل بين هذه العلوم والمعارف غير مجدية نظراً لتداخلها الشديد في الأهداف والأدوات.

وقد شكلت العلاقة بين البلاغة والتداولية عوامل ربط بين البلاغة وعلم اللغة، **فموضوع البلاغة والتداولية** :هو استعمال اللغة بوصفها وسيلة تواصل بهدف ممارسة فعل على المتلقي، فالنص اللغوي هو نص تداولي، أي نص في موقف، ومن ثم يتفق المنظور البلاغي والتداولي في مراعاة الملابسات الخارجية والعناصر السياقية المختلفة في عملية التحليل؛لأن المتكلم في الأصل قد راعى هذه الظروف والملابسات المقامية التي تحقق لرسالته اللغوية أقصى درجات التواصل. تأثيراً أوإقناعاً. مع المتلقي، **فالبلاغة** :نظام من التعليمات تستخدم في إنتاج النص. في بعدها المعياري. ومن ثم يصبح من المجدي أن ينتفع المحلل بمعرفة الأشكال البلاغية التي يستخدمها المرسل5.

ثالثا:البعد التداولي للبلاغة

عندما ننظر للظاهرة البلاغية باعتبارها ظاهرة لغوية متجسدة في خطاب، ومتحققة فيه، خاضعة لشروط القول والتلقي، فإننا نكون أمام خطاب تواصلي يمتاز **بخصائص بنائية وبراغماتية** تجعله مختلفا عن

غيره من الخطابات **الإخبارية، السردية والحكائية**. وبالتالي فإن مقاربة هذا النوع من النصوص سوف تكون مختلفة، لأن التعامل النقدي في هذه الحالة سيكون مع نوع خاص من التخاطب، إذ إن أية محاولة لرصد الصور الأسلوبية والبنائية في القول البليغ ستجد نفسها أمام ظواهر بلاغية (**أسلوبية وبنائية وحجاجية**)، تحتل فيها القصدية والتأثير والنجاعة مكانة هامة، مما يفرض على الدارس استحضار مقاصد المتكلم والسياق التداولي الذي يتم فيه التخاطب الأدبي.

إن البعد التداولي للبلاغة يتولد من اهتمامها بمفهوم "المقام الخطابي" في سياق بحثها عن المقاصد، وقد ترتب عن توجه البلاغة نحو الأثر التداولي أن وضع المتلقي في مركز الاهتمام. وتنطلق البلاغة في ذلك من تصور يعتبر أن كل نص متضمن بالضرورة لقدر من البلاغة، أو هو بلاغة بشكل من الأشكال مادام يتملك وظيفة تأثيرية، "وبهذا الاعتبار **فالبلاغة تمثل منهجا للفهم النصي** مرجعه التأثير، وعندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية فإننا ننظر إلى النص من زاوية نظر المستمع/القارئ، ونجعله تابعا لمقصدية الأثر.

رابعا:مميزات بلاغة النص

إن **ما يميز بلاغية النص الأدبي** عن غيره من التحققات النصية الأخرى، هو استناده إلى مرجعية أو سياق مشترك بين المخاطب والمخاطب، وبالتالي بروز قيمة القصدية بالنسبة للذوات المتخاطبة، وبذلك ينتمي القول الشعري إلى مجال التداوليات، وهو مجال شاسع يسمح لنا بالقول إن هناك تداولية بلاغية، إلى جانب التداولية اللسانية والمنطقية والفلسفية.
فالبلاغة تتحدد بكونها "فنا"، أي مجموعة من القواعد المعيارية التي تتيح الإقناع أولا ثم التعبير الجيد لاحقا، ومن ثم نظر للبلاغة بوصفها عتادا بنائيا وتبليغيا يتقصد أساسا التأثير في متلقي الخطاب، وهو ما يكشف عن البعد التداولي والمقامي للبلاغة، **إذ يمكن للبلاغة** –وبالرغم من طابعها المعياري- أن "تصبح بلاغة وصفية، بل أيضا بلاغة تاريخية وتأويلية تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي الشارح **(للنص)**، إنها مؤهلة في هذه الحالة، لتكوين أسس **"نظرية تداولية للنص**.

خامسا: الأبعاد المعيارية للبلاغة

تتمثل الأبعاد المعيارية لبعض أنظمة اللغة العربية؛ اللغوية والبلاغية، في استكشاف وظائفها وقوانينها وآلياتها الأدائية. **وتتجلى الأنظمة اللغوية** في: **الإعراب والرتبة والمطابقة والاشتقاق والترادف**. أما الأنظمة المتعلقة بالجانب البلاغي؛ فهي: **الطباق والمقابلة والإيقاع والمجاز**. وهذه الأنظمة تشكل أُسساً

معيارية في اللغة العربية، وتعمل بشكل متكامل وتؤدي في مجملها وظائف تتعلق بالضبط الدلالي وإزالة اللبس، وترتيب المفردات داخل الجملة وفق معايير وسياقات دلالية وجمالية. كما تسعى لتنمية اللغة وإثراء معجمها وتلبية مقتضى التواصل اللغوي العام، وخلق نصوص إبداعية، وخطابات تداولية حجاجية تحقق وظيفتي الإقناع والإمتاع

الهوامش

1. سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة 1997م ص6.
2. المرجع نفسه، ص: 7.
3. هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، ترجمة د. محمد العمري، ط1، الدار البيضاء 1989م، ص16.
4. ويراجع أيضاً د. سعيد حسن بحيري: علم لغة النص ص17.
5. . سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مرجع سابق ص12، 13.
6. برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب، ص179.